

الخارجون على الدولة

يتحدث الإسلام عن نوعين يخرجون على الدولة:

١ - قطاع الطريق.

٢ - البغاة.

والقدر المشترك بينهما هو عدم إطاعة الدولة، ثم يختلفون

هل هم كثرة أم قلة؟ وهل لهم عقائد وأفكار أم لا؟

البغاة: من هم؟ وما حكمهم؟

يقول تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَت إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾ (الحجرات: ٩).

أما السنة فتتحدث عن وجوب اعتزال (الفتنة) وعدم المشاركة فيها، ويلاحظ أن البعض من كبار الصحابة اعتبر الحرب بين الإمام علي ومعاوية من الفتنة؛ لذا ابتعدوا عنها ولم يشاركوا فيها، وقد استعرض الفقيه (ابن قدامة) الخارجين على الحكومة، و صنفهم إلى^(١):

١- قوم امتنعوا، وخرجوا عن الطاعة، لكن من غير تأويل، أي من دون أفكار وعقائد متميزة، فهؤلاء (قطاع طرق).

(١) المغني ١٠٧/٨.

٢ - قوم لهم تأويل، لكنهم قلة قليلة، فهؤلاء (قطاع طرق) لدى جمهور الحنابلة والشافعي، لكن بعض الحنابلة جعلهم من (البغاة)؛ لأنه لا ينظر لقلة العدد وكثرته.

٢ - الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، والذين قاتلهم الإمام علي رضي الله عنه، فجمهور الفقهاء يرى (استتابتهم) فإن تابوا وإلا قتلوا، لكن جماعة من أهل الحديث (تكفروهم). وعندما سئل الإمام علي عنهم: أكفار هم؟ أجاب: من الكفر هربوا.

٤ - قوم من أهل الحق يخرجون عن قبضة الإمام، ويعملون على خلعه، ولديهم تأويل سائغ، وفيهم قوة، بحيث يحتاج إلى جيش لردهم، فهؤلاء هم (البغاة) وما سيطروا عليه من أرض، صار دار (بغي).

تعريف البغاة

لعل أفضل تعريف للبغاة ما ذكره ابن قدامة بقوله^(١):

قوم من أهل الحق، يخرجون عن قبضة الإمام، ويعملون على خلعه، ولهم تأويل سائغ، وفيهم قوة، بحيث يحتاج إلى جيش لردهم، فهؤلاء (البغاة) وما سيطروا عليه من إقليم (دار بغي) ... أ.هـ.

(١) المغني ٨/١٠٧.

فالبغاة (ثوار) لهم قوة ولهم أفكار ومبررات معقولة، وهم مسلمون في الأصل إلا إذا تبنوا أفكارًا تخرجهم من الإسلام، ويلاحظ أن (الثورة) تبدأ بشكل ثم تتطور وتتبدل وتعديل في الأهداف والمعتقدات، لكن الخروج بنفسه لا يكفر؛ لأن الله تعالى وصف المتقاتلين بالإيمان: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا...﴾ فإعلان الثورة قد يصاحبه ويواكبه معتقد يكفر صاحبه وقد لا يكون ذلك...

شروط قتال البغاة

- لأن حكم البغاة الإسلام، ولهم مستند معقول في ثورتهم؛ لذا اتجه الفقهاء لوضع شروط هدفها دفعهم وإلحاق الهزيمة بهم فقط، وليس قتلهم والتخلص منهم، ومن هذه الشروط^(١):
- ١ - عدم الحكم عليهم بالكفر لمجرد الخروج.
 - ٢ - لا تستعمل ضدّهم أسلحة (دمار شامل) - بلغة اليوم - فلا يقتل إلا من يقاتل.
 - ٣ - يكتفى بإلحاق الهزيمة بهم.
 - ٤ - لا يقتل جريحهم ولا أسيرهم، ولا تغنم أموالهم ولا تسبى ذريتهم.
 - ٥ - ما أتلّفوه خلال الحرب والقتال لا يغرموه.

(١) المغني لابن قدامة ١١٠/٨.

يقول ابن قدامة^(١): إذا ترك (أهل البغي القتال، إما بالرجوع إلى الطاعة وإما بإلقاء السلاح، وإما بالهزيمة إلى فئة أو إلى غير فئة، وإما بالعجز لجراح أو مرض أو أسر، فإنه يحرم قتلهم) واتباع مدبرهم، وبهذا قال الشافعي، وقال أبو حنيفة: إذا هزموا إلى فئة لهم كقولنا، وإن كانت لهم فئة يلجؤون إليها، جاز قتل مدبرهم وأسيرهم والإجهاز على جريحهم، وإن لم يكن لهم فئة لم يقتلوا... ١.هـ.

٦ - أما المقتول منهم فيغسل ويكفن ويصلى عليه، كما فعل الإمام علي رضي الله عنه بالخوارج.

٧ - أما إن ارتكبوا ما يوجب (الحد) ثم قُدرَ عليهم، أقيم عليهم، ولا يسقط باختلاف (الدار)، وهذا قول الشافعي ومالك وابن المنذر... ويرى أبو حنيفة: إذا امتنعوا بدار - أي خاصة بهم - لم يجب (الحد) على أحد منهم؛ لأنهم خارجون عن (دار الإمام) فأشبهوا من كان في (دار الحرب).

ومعلوم أن الأحناف يعدون الإسلام واجب التطبيق في دار الإسلام، وأما خارج هذه الدار فلا سلطة للمسلمين، وهذا هو رأي القوانين الوضعية، فالدولة تطبق نظمها وقوانينها داخل حدودها وفي سفاراتها وقنصلياتها فقط.

(١) المرجع السابق ١١٤/٨.

حضور القتال دون الاشتراك

درس الفقهاء إمكانية أن يحضر القتال أشخاص، لكن لا يشاركون فيه، مع قدرتهم عليه، فهؤلاء لم يجز أن يقصدوا بالقتل؛ لأن القصد من قتال البغاة كفهم، وهؤلاء كفوا أنفسهم، فلا حاجة لقتلهم، ويستشهد الفقهاء بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ﴾ (النساء: ٩٣).

فدل القرآن الكريم على تحريم (قتل المؤمن عمداً) على وجه العموم، وإنما خص من ذلك ما حصل ضرورة مثل (دفع الباغي والصائل) والصائل هو المهاجم، وفيما سواهما يبقى على عموم المنع، فمن لا يقاتل مع قدرته ولا يخاف منه القتال - بعد ذلك - وهو مسلم لا يحتاج (لدفع) فلا يحل دمه^(١)... ا.هـ.

ولعل الإشكال الأكبر اليوم في نوع السلاح المستعمل من طيران وصواريخ وأمثالها، فهي برغم (الدقة) تقتل غير المقاتل، بينما المقاتل يكون في حماية، كذلك الاستعمال المفرط للسلاح مع وجود حاجة وعدمها، ومع وجود تهديد أو عدمه، فكم في عالم اليوم من يعتقد أن أمريكا كانت مهددة من قبل السودان أو العراق أو أفغانستان حين شنت الحرب على هذه البلاد وما زالت؟!

(١) المغني لابن قدامة ١٠٩/٨.

الحرابة (قطع الطريق)

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ﴾ (المائدة: ٣٣).

الحرابة: البروز لأخذ المال أو القتل أو الإرعاب على سبيل المجاهرة مكابرة، اعتماداً على القوة مع البعد عن الغوث...^(١)
 واعتبر المالكية (محارباً) من يحاول الاعتداء على العرض مغالبة، ويتفق الفقهاء على اعتبار الحرابة من الحدود الشرعية.
 وفي السنة المطهرة قال ﷺ^(٢): «من حمل علينا السلاح فليس منا».

من المحارب؟ وما شروطه؟

هو المسلم بشروط معينة مثل^(٣):

١ - الالتزام: أي بأحكام الشريعة، فإن كان محارباً أو معاهدًا أو مستأمنًا فلا.

(١) بدائع الصنائع ٩٠/٧، والمغني لابن قدامة ٨٧/٨، وروضة الطالب ١٥٤/٤.

(٢) أخرجه البخاري (رقم ٦٨٧٤) (فتح الباري ٢٣/١٣) كما أخرجه مسلم (رقم ٩٨) ٩٨/١.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ١٧/١٥٥.

- ٢ - التكليف: أن يكون عاقلاً بالغاً.
- ٣ - الذكورة عند الأحناف، ولا تشترط لدى الحنابلة والشافعية والمالكية.
- ٤ - وجود السلاح: قال بذلك الأحناف والحنابلة، ولم يشترط المالكية والشافعية حمل السلاح، إذ يكفي القهر والغلبة وأخذ المال.
- ٥ - البعد عن العمران: وذهب المالكية والشافعية وأبو يوسف من الأحناف وكثير من أصحاب أحمد إلى عدم اشتراط البعد عن العمران.
- ٦ - المجاهرة: ذلك لأن أخذ المال إن حصل سرّاً فهو سرقة، وإن اختطفوا المال وهربوا فهم (منتهبون).

الجديد (الخطف وطلب الفدية)

ظهر أخيراً الخطف للشخص أو أطفاله، ثم لا يطلق حتى يدفع (فدية)، ومن إبداعات الخاطفين أخذ المال، وقتل الرهينة، فهل هم من أهل الحرابة؟! الذي أتصوره أن الخطف بأنواعه حرابة من نوع جديد؛ لأنها تخيف الناس وتعتدي بالقتل والتعذيب وطلب الفدية، وكلها تدخل في الحرابة وزيادة، ويمكن أن يزداد في العقوبة بفرض غرامة مالية كبيرة تجعل الإنسان الذي يخطف يحسب للعقوبة حساباً كبيراً.

ومن الجرائم الجديدة (التهجير)، فالإنسان ينفق عشرات السنين كي يتمكن من بناء سكن أو شرائه، فيأتيه مجرم لا يخاف الله فيأمره بمغادرة بيته، يخرج بملابسه ويهدد بالقتل إن اقترب من البيت الذي هو كل ما يملك في هذه الدنيا.

أعرف شخصاً كدح واشتغل عشرات السنين، ووضع كل ما لديه في بيت، ثم جاءه مجرم ليخرجه من البيت مع التهديد بالقتل، وبعد أيام معدودة فقد المسكين نظره.

الأ يعد مثل هذا العمل قمة في (الإرهاب) وأكبر من قطع الطريق، فقطع الطريق يمكن أن ينتهي بخوف ساعة أو ساعات وأخذ قليل من المال، وقد يكون ثمة قتل أو لا يكون، أما الخطف وما يصاحبه والتهديد بالقتل وحال الأهل والأقارب، ثم تدفع الفدية ويقتل المسكين فهل هناك جناية أكبر من هذه الجناية.

الأ أكبر من كل هذا!

الأ أكبر من كل ما تقدم أن تقوم شرطة أو جيش بملا بسهم الرسمية، وبسيارات الدولة وسلاحها فيها جمون بيتاً ويسلبون كل ما فيه من مال، وقد يعتقلون الرجال ثم يطلبون (رشوة) لإطلاقهم، إنه أكبر امتحان لإنسان أعزل لا يمكنه حتى الكلام مخافة القتل والتعذيب، ويصل به الخوف أن يتجنب الشكوى

مخافة ما يمكن أن يلحقه من جراء ذلك، ألهدا وجدت الحكومة
والشرطة والجيش؟!

وراع الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا كان الرعاة هم الذئاب؟
اللهم يا كريم لا تسلط علينا من لا يخافك ولا يرحمنا، ولا
تؤاخذنا بما يفعل السفهاء منا يا أرحم الراحمين.

عقوبة المحارب

أشارت الآية لأكثر من عقوبة: القتل أو الصلب أو قطع
الأيدي والأرجل والنفي، فهل هناك تخيير أم لكل فعل ما
يناسبه^(١)؟

١ - الشافعية والحنابلة ومحمد وأبيوسف من الأحناف يرون
أن (أو) في الآية تفيد ترتيب العقوبة على حسب الجناية.
فمن مارس القتل وأخذ المال يقتل ويصلب، ومن أخذ
المال فقط قطعت يده اليمنى ورجله اليسرى، فإن أخاف
الناس، لكنه لم يقتل ولم يسلب المال، فعقوبته النفي.
أبو حنيفة يرى أن الإمام مخير في ثلاثة أمور: القطع
ثم القتل أو القتل فقط أو الصلب؛ لأن الجناية جمعت القتل
وأخذ المال، فالقتل وحده يستوجب القتل، وأخذ المال وحده
يستوجب القطع، ففيهما مع الإخافة لا يعقل القطع وحده.

(١) الموسوعة الفقهية ١٧/١٥٨.

ويرى جماعة من العلماء أن الآية تدل على التخيير بين
الجزاءات الأربعة: فمن قطع الطريق وقدر عليه الإمام خير
في أي عقوبة يرى المصلحة فيها، وإن لم يقتلوا ولم يأخذوا
مالاً، فكأن العقوبة تكون (للإخافة).

٢- هناك تفصيل: إن قتل القاطع فلا بد من قتله، إلا إذا رأى
الإمام مصلحة في بقاءه أعظم من قتله، لكن ليس له تخيير
في قطعه ولا نفيه بل قتله أو صلبه فقط، وإن أخذ المال ولم
يقتل لا تخيير في نفيه بل في قتله أو صلبه أو قطعه، فإن
أخاف فقط فالإمام مخير بين قتله أو صلبه أو قطعه - حسب
المصلحة - فإذا افترضنا أن العدالة تتطلب أن تكون العقوبة
على قدر الجناية فالتفصيل الأول هو الأنسب بإذن الله.

في سقوط الحرابة

قال تعالى في ختام آية الحرابة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن

قَبْلِ أَنْ تَقْدَرُوا عَلَيْهِمْ﴾ (المائدة: ٢٤).

توبة الجاني قد تكون قبل تمكن الدولة منه، وقد تكون بعد
القبض عليه، في الحالة الأولى فالتوبة مقبولة، أما في الحالة
الثانية فلا قيمة لها، فهي كمن يمارس الزنا ثم أصيب بمرض
فصار عاجزاً عن ذلك، وعندها تاب، فتوبته لا قيمة لها على
الأقل حسب الظاهر والله يتولى السرائر..

ونظراً لأن الحراية تحتوي على حقوق لله تعالى وأخرى للبشر، فحقوق الله تسقط بالتوبة، أما حقوق العباد فلا تسقطها التوبة، وهذا بشكل عام، والحراية كذلك، فمن أخذ مآلاً فعلية رده (عند الجمهور)، وقد فصل الأحناف فقالوا: إن كان المال موجوداً وقائماً فلا يسقط إلا بعضو مستحق..

وحديث (الدواوين) ثلاثة يوضح ذلك أفضل توضيح، فقضية الشرك محسومة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.. ومن أضع فرضاً من صلاة، أو فاته صيام يوم فالله تعالى يعفو عنه أو يعاقبه، ومن أخذ مآلاً لأخيه فعلية أن يرده أو يسامحه في الدنيا، والتوبة لا تسقط حقوق العباد.

تفنن البشر

إن البشر يتفنن في طعامه وشرابه ولباسه وبيته، ومن التفنن القاتل هذا النوع من الجريمة المنظمة، ومن المنظمات الإرهابية، ومن تجار المخدرات، ومهربي السلاح وغيرها ما يستجد يومياً، ومن المهام الأولى والكبرى نشر الأمن ودفع الظلم ومنع الأذى بكل أصنافه، لكن الجديد القاتل أن تأخذ الحكومة على مسئوليتها نشر التعذيب والعدوان على الفرد الذي لا يستطيع مصارعة قوى الدولة، على حين تتهرب الحكومة من واجباتها فتقف عاجزة عن الجماعات المجرمة التي تعيث في

الأرض فساداً، تنتشر الموت والرعب، والحكومة لا تحرك ساكناً؛ لأنها غير مستهدفة بذلك، أو لا تريد فتح معركة مع مجرمين عتاة، لا يعرف أحد نتيجتها ولا موعد الانتهاء منها.

الإنسان والتاريخ

الإنسان مخلوق ثقافي، وذاكرته (التاريخ) وله به عشق وغرام، يتأثر به وبأساطيره أكبر تأثر وأعظمه، وقد وجدت (بول فاليري) في كتابه: (نظرات إلى عالم اليوم) يسجل هذا الغرام بالتاريخ بأجلى صورته، فهو الذي يصوغ أحلام الشعوب، بل يغذيها بذكريات مزيفة، وهو أخطر (كيمياء) يفرزها الفكر البشري، وهو يصوغ الأحلام، ويسكر الشعوب ويغذيها بذكريات سليمة ومزيفة، ويبالغ في أهميتها ويرفدها بما (يقض مضاجعها)، يقودها إلى (هلوسة العظمة) أو جنون الاضطهاد، وهو قادر على أن يحيل الأمور إلى (مرارة أو عجرفة أو غطرسة) أو يدفع نحو جنون الاضطهاد، فالتاريخ يبرر ما نريد، إنه يحتوي على كل شيء^(١) ... أ.هـ.

ومن يستذكر ما تعتقده إسرائيل وما تنشره في العالم لا يصعب عليه أن يصدق بأن التاريخ كيمياء تحوي كل شيء.

(١) أمريكا طليعة الانحطاط د. رجاء جارودي ص (١٨٠) الطبعة الثانية

أما من يتحفظ على ذلك أو يرفضه فيمكن أن يحال على أمثال نيرون ونابليون وهتلر وستالين وبن غوريون، وعلى تلاميذهم وعشاقهم من مات قريباً، ومن لا يزال ينتظر.

التاريخ مسعر الحروب ومشعل الفتن، وله سحر لا يقاوم، وفي حقائقه وأساطيره ما يشبه المعجزات.

أما القديم الجديد فهو استخدام (التاريخ) لأهداف سياسية، ويذكر د. جارودي مثلاً^(١): فلأجل تبرير (سباق التسلح) أو السيطرة بأنواعها يصطنع تاريخاً (للاعداء والخصوم) فهم شياطين، ففي وقت قريب كان (الاتحاد السوفيتي) يمثل (إمبراطورية الشر) فلما ذهب وسقط وانحل صار (الإسلام) بديلاً له، لتبرير سياسة محددة، وفي وقت مضى ظهر (تاريخ مقدس) كان في البداية (تاريخ العبرانيين)، ثم استولى عليه المسيحيون - الذين ادعوا وراثتهم - كي يبرروا حملاتهم الصليبية، ثم استعاروها بعد ذلك ... أ.هـ.

ويلاحظ: أنه عندما انتشرت المسيحية صار اليهود هم أعداء السيد المسيح، ودمه في رقابهم إلى يوم القيامة، فلما قام المصلح الديني (كالفن) صار هو عدو السيد المسيح، وذات يوم صار البروتستانت يعدون (البابا) هو عدو السيد المسيح،

(١) أمريكا طليعة الانحطاط ص (١٨١).

أما أخيراً فقد صار هتلر وموسيليني وستالين هم أعداء السيد المسيح، ومن يدري فقد ينظم قريباً زعماء جدد كأعداء ألداء للسيد المسيح، ربما أولهم الرئيس الصيني أو الفيتنامي أو البرازيلي..

حتى جماعة (يأجوج ومأجوج) الأسطورية أطلقت على روسيا والاتحاد السوفيتي، إنه التاريخ يتلاعب به وبأهله.

بعض وقائع التاريخ تشبه (الألغام الأرضية) تبقى في الأرض سنوات ثم تتفجر في بشر أو حيوان أو سيارة أو غيرها.

والتاريخ قديماً وحديثاً قد يكون المسؤول عن كثير من الصراعات الدموية والحضارية، فالإنسان (مصارع بطبعه) وكذلك الحيوان، لكن الإنسان يحسن ويوجد ويجمل في صراعاته، فيعطيها صفة غير صفتها، والمثل القريب تلك المنشورات لنابليون والمستعمرين - دون استثناء - فكلهم جاء لخدمة البشرية وإنقاذ الحضارة والحرص على ما ينفع الأمم والشعوب.

هل سمع العالم قديمه وحديثه من مستعمر يقول: جننا لغزوكم، واحتلال أرضكم، ونهب خيراتكم، ولعن أسلافكم، وتحطيم قدراتكم؟

إنه الإنسان المراوغ الأعظم والمزور الأكبر والمنافق، الذي يستطيع أن يقول شيئاً جميلاً ويفعل عكسه، ومن يجادل في هذا فليسأل أميركا مثلاً: لماذا تنتشر جنودها في كل بقاع الأرض وتتفق عليهم المليارات، وهي تستدين وتتادي: صدقة لله، لله يا محسنين؟

الصراع من طبيعة الإنسان والحيوان، الحيوان لا يعرف كيف يجمل صراعه، ولا كيف يخفف منه أو يشدد، لكن الإنسان يقدر على الهبوط بالصراعات نحو الحد الأدنى والارتفاع بها نحو السقف الأعلى، وهذا في مقدور الإنسان كما في مقدور الحضارة.

حاول أنبياء الله جعل الصراع في حدود معقولة، فلما ذهبوا صارت أديانهم وما جاءوا به سبباً جديداً حاداً للصراع، واليوم يجدد شياطين السياسة استثمار كل شيء حتى ما جاء به أنبياء الله.

إن السياسي اليوم شيطان رجيم يلعب على كل الحبال، ويغير دينه وعقيدته كما يغير ملبسه الداخلية و(جواربه وحذاءه).

إنه (حاوي) يستطيع إخراج الحية من جحرها، وردها إليه متى شاء، وهو في صراعه وتصارعه لا يرحم، وكل شيء عنده

مباح، و(الحلال ما حل باليد) أما المبادئ والثوابت والأخلاق فمواد للحديث وليست للتطبيق.

من هنا صار التحالف فناً كفن الرقص، وعلاقات الدول كعلاقة إنسان ببياعة الهوى، لا ترد يد لأمس، ولا تدفع أو تمنع (ملامس).

ولعل من أسباب شقاء البشر صعود هذا النوع (الردليل) حتى يصل إلى القمة، وصدق سيدي رسول الله ﷺ إذ جعل من علامات الساعة: (أن يكون زعيم القوم أراذلهم).

فإذا ساد (الأراذل) وقلدهم الناس فأى خير يرتجى وأي شر يدفع؟ وهل من المستغرب انتشار الحروب والقتل والخطف والتعذيب والتهجير ونشر المخدرات والمفخخات؟ مع حكام أراذل ونكرات لا يعرفهم أحد؟

درس من جنوب إفريقيا

كنت في زيارة لجمهورية جنوب أفريقيا عندما كان يحكمها (البيض) بعنصريتهم الفجة، وكان السود يقاومون، وحدث أن فجروا طائرة مدنية، فقامت قيامة البيض وراحت الصحف تبكي وتنوح: كيف يحصل هذا؟ وجاء جواب مُسكت عندما كتب البعض: يكفى البكاء والنواح من علم هؤلاء، وأي

مدرسة تخرجوا فيها؟ ألسنا الذين علمناهم ورببناهم، فلماذا هذا الاستغراب لما فعلوا؟ هل تلد الحية إلاحية؟

وأنا بدوري أتساءل مع الملايين من البشر: من علم هؤلاء الأبطال الذين يشعلون الحروب التي لا تنتهي؟ وكيف شهد القرن العشرين حربين كونيتين؟ وكيف ولماذا كانت الحصيلة (١٧٦) مليوناً من البشر كما يقول المستشار بريجنسكي؟

في أي مدرسة تخرج الضباط الكبار الذين يشعلون الحروب، وينشرون الحرائق في كل أقطار الأرض؟

في أي مدرسة عظيمة تعلم (سائقو) السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة، في بلد صغير مثل العراق المنكوب يوجد خمسة ملايين يتيم وأرملة - حسب إحصائية هيئة الأمم المتحدة - من كان السبب في قتل الرجال ويتم الأطفال؟ من المسؤول عن التهيج باسم (حرية تقرير المصير)، لتصبح كل دولة صغيرة أو كبيرة (عدة دول)، ولتشتعل فيها الحروب من دون نهاية؟

حق تقرير المصير

الإنسان صنع الدولة أو اخترعها كما صنع القنابل والمتفجرات، وكان أمله أن تعينه الدولة، فتحفظ له أمنه وتدافع

عنه، لكنه وجدها من أكبر المعتدين عليه، فصار ينادي: إذا كان خصمي حاكمي فكيف أفعل؟

الدولة تتغول على الفرد وتسلبه أمنه وترعبه وقد تعتقله ولا تفرج عنه حتى (يدفع)، ومع كل هذا الشر الجديد فإن شراً أشر منه يلوح في الجوحين يرفع شعار (حق تقرير المصير)، فتطالب كل جماعة صغيرة أو كبيرة وكل قومية تعتقد أنها غير حاصلة على حقها، فما هو مصير الدولة إذن؟

(جيدون جوتليب)^(١) أستاذ القانون الدولي والدبلوماسي والأستاذ في جامعة (شيكاغو) - وليس في الأزهر - يتحدث عن تقرير (المصير) القومي فيذكر أن ما يقارب (٢٠٠) دولة و(٣٠٠٠) مجموعة لغوية و(٥٠٠٠) أقلية قومية (في العالم) تمثل نموذجاً رهيباً من التنوع والانفصال، وهناك (٢٣٣) طلباً معظمها من شعوب وجماعات قومية قدمت من أجل نيل (حق تقرير المصير) للأمم المتحدة.

د. بطرس غالي - الأمين العام السابق لهيئة الأمم - يقول: لو طالبت كل مجموعة عرقية أو دينية أو لغوية (بدولة مستقلة) فلن يكون ثمة حد لما سينجم عن تقسيمات لا حصر لها، ناهيك عن تحقيق الأمن والسلام والرفاه الاقتصادي لجميع هذه المجموعات... ١.هـ.

(١) الشعب والأمة والدولة، مجموعة من الكتاب ص (٩) دار السلام، طبعة أولى ٢٠٠٧م.

مهمة الدولة الأولى توفير الأمن ونشر العدل، فإن راحت الدولة تتخندق طائفيًا أو عنصريًا أو عشائريًا أو (لصوبيًا) وتصبح جلاذًا لشعبها، تستذله وتتهب خيراته وتشرده، فسوف تفقد الولاء يومًا بعد يوم، ويتمنى الكل زوالها، فإذا جاء عدو بها جمعها لم تجد من يدافع عنها.

يقول رسولنا ﷺ: «ألا أخبركم على خيار أمرائكم وشرارهم؟ خيارهم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتدعون لهم ويدعون لكم، وشرار أمرائكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم...»^(١) .هـ.

تفعيل الصراع

البشر لديهم ألف سبب وسبب للتصارع، والجديد تهيج الصراع بتحريك القضايا القومية النائمة..

يتداول العراقيون قضية: شخص أمني يذهب إلى كاتب يشرح له ما يعتقد ظلمًا يقع عليه، يستمع الكاتب ثم يكتب الطلب وقبل أن يسلمه - لصاحب الشكوى - يقرؤه عليه، فينخرط الشاكي بالبكاء، وعندما يسأله الكاتب عن سر بكائه يقول: أنا أعرف أي مظلوم، ولكنني لم أعرف مقدار ذلك حتى سمعت ما كتبت.

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ٢٥٩٩).

في البشر ناس اعتادوا الشكوى بحق ومن دونه، ومظلومون لا يشكون ولا يتوجعون، لعدم شعورهم بذلك.

الكاتب (غريغور منصور مرشو) السوري الأصل له كتاب عنوانه: مقدمات الاستتباع: الشرق موجود بغيره لا بذاته..

جاء فيه - وهو يتحدث عن التهييج القومي^(١): ... بلغت الدعوات القومية أوجها خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها، حتى انتهى بها الأمر (للتناحر) نتيجة وعود (ملغومة) أعطتها القوى الاستعمارية لجماعات محلية. فقد وعدت كل جماعة - على حدة - بإنشاء (وطن قومي) لها - مرتهن بشروطها - وهذه الجماعات شملت: أرمني، كردي، عربي، سوري، فينيقي، قبطي، فرعوني، بربري، درزي، علوي... حتى أصبحت بلادنا بشهادة (جبران خليل جبران) آنذاك مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة، متضاربة المشارب، كل مستعمرة تشد أو ترتبط في حبل إحدى الأمم الغربية، وترفع لواءها، وتترنم بمحاسنها وأمجادها... فالشباب الذي تناول (لقمة) من علم في مدرسة أمريكية قد تحول إلى (معتمد أمريكي)، والشباب الذي تجرع (رشفة علم) في مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً، والشباب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية صار ممثلاً لروسيا... إلخ.

(١) مقدمات الاستتباع... ص (٥٥)، الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

وما تخرجه هذه المدارس - كل عام - من ممثلين ومعلمين وسفراء، هم أعظم دليل على ما تقدم، اختلاف في الرأي وتباين في النزعات، فمن درس بعض العلوم بالإنجليزية يريدون أمريكا أو إنجلترا (وصية على بلادهم)، والذين درسوا العلوم بالفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولى أمرهم، وهكذا... بالاحتكام لمرجعية (الأمم الغربية) والاستقواء بها صارت تقاس مشروعية أو عدم مشروعية الدول الإقليمية (الجديدة) بعد اتفاقية ساكس - بيكو (التقسيمية) عام ١٩١٦م.

أما المواطنون في خضم هذه التغيرات فما عليهم إلا الرضوخ وتقديم الولاء، وإلا فمصيرهم الإبعاد والتهميش أو الاعتقال، فإن حصل وانتفض أحد على هذا (المآل المشؤوم) فمصيره الحديد والنار، كما جرى وما يزال في بعض دول (المشرق والمغرب العربي) ... أ.هـ.

هذا الاستتباع أو الاستلحاق شرذم الشعوب والأمم أولاً، وهيَّج قوميات وعصبيات كانت نائمة، وربما سعيدة بنومها، فإذا فتح (هذا الباب) وطالبت كل قومية (بتقرير المصير) فلن تبقى دولة بعيدة عن التقسيم.

في أفريقيا حيث القبائل كبيرة مثل (الزولو) في جنوب أفريقيا، تجد القبيلة موزعة ومنتشرة بين عدة دول، فهل سيعاد

رسم الحدود وفق الأسس القومية مرة، ووفق الأسس الطائفية
مرة، ووفق الأسس العشائرية مرة؟

فإن حصل هذا فأى دولة تجمع قومية واحدة أو ديناً واحداً
أو لغة واحدة؟ أوروبا اليوم تتجمع قارة، ومطلوب لغيرها أن
يتقسم، وقد يصل التقسيم إلى (المذهب)!

والسؤال: لمصلحة من هذا (التفتيت)؟

عندما ينتصر حاقداً

في الحرب العالمية الأولى تحالف الأتراك مع معلمهم
(الألمان) وخسر الطرفان الحرب، وتحالفنا مع الغرب وقاتلنا
الأتراك، ودخل الجيش الفرنسي دمشق، ووقف اللورد للنبي
عند قبر صلاح الدين، وقال: ها قد عدنا يا صلاح الدين!

نعم عدتم، ولكن تجاهلتم: كيف عدتم، ولماذا عدتم؟

صليبي آخر هو الجنرال غوابة يصل إلى دمشق عام
١٩٢٠م، وهو يقود حملة ويدخل دمشق فاتحاً..

يسجل ساطع الحصري في كتابه (يوم ميسلون) ما ذيل
به الجنرال (غوابة) مذكراته، فقد كتب^(١): أنا الآن في دمشق،

(١) الحروب الصليبية الأوروبية التاسعة، محمد الفرحان ص (١٤٠) طبعة
١٩٩٣م.

وهذا الاسم يمثل لي شخصياً شيئاً خرافياً، فقد كنت أقرأه في سجلات عائلتي وأنا صغير. إن (جان مونفولطية) هو الجد البعيد لجدتي من جهة (أبي وليز)، وقد كان وقع في الأسر خلال الحروب الصليبية الثانية عام ١١٤٧م، ونقل لدمشق. لقد كان من السواد الأعظم، لذا لم يعامله (السراقون) المعاملة الحسنة، كالتي كانوا يختصون بها (الفرسان) اللامعين، وقد جعل منه أهل دمشق (عبداً)، يشتغل في أحد المصانع التي تصنع الورق من القطن، فاشتغل (جان) المسكين شغلاً شاقاً خلال ثلاث سنوات، وبعد ذلك (فر) من دمشق، وتمكن من الالتحاق بالجيش الصليبي وبعد اجتياز أخطار، وعندما عاد إلى مسقط رأسه بعد غياب عشر سنوات، أسس أول (طواحين الورق) التي عرفتها أوروبا، أو ليست (العدالة العليا) هي التي سمحت لحفيد (أسير الحرب الصليبية) أن يدخل دمشق (المدينة المقدسة) ظافراً منصوراً... أ.هـ.

إنه التاريخ هذه (السلطة) التي من مهامها صناعة الحقد والكراهية، إنه يتجاهل كيف كان الغرب يتحالف مع العرب، وفي الوقت نفسه يوقع (معاهدة سايكس بيكو) ويستعمر البلاد العربية، ويقسمها السادة الجدد بعد أن يلحسوا وعودهم وتحالفاتهم، إنه (طاعون الاستعمار) لا يرحم ولا يعترف بالأخلاق ولا بالوعود ولا بالعهود!

من التاريخ الأسود: حرب إبادة

الإنسان الغربي المعجب بنفسه وحضارته، والمحتقر لكل الحضارات وأهلها، فعل بالبشر من الهنود الحمر والأفارقة ما يسود تاريخه إلى الأبد، والشاهد العدل الذي لا يخاف ولا يهاب هو (د. نعوم تشومسكي) الذي يوصف عادة بأكبر (مشاغب)، إنه متطوع لكشف جرائم إسرائيل وأمريكا.

تحدث في (تواريخ الانشقاق) ^(١). عما فعله المهاجرون لأمريكا من حرب (إبادة) لا مثيل لها ضد الهنود الحمر.

يقول د. نعوم: نحن نحتفل كل عام في ولاية (ماسوتشيتس) الأمريكية بغزو (همسفير الغربية)، ولدينا عطلة رسمية تدعى (يوم كولومبس) لكن قلة قليلة تدرك بأنها تحتفل بأول (إبادة وحشية) لشعب في العصر الحديث، وهذا ما كان عليه كولومبس، وكأنهم يحتفلون (بيوم هتلر) في ألمانيا.. فعندما جاء المستعمرون من أسبانيا وإنجلترا وهولندا وغيرها إلى (همسفير) فقد وجدوا مجتمعات مزدهرة، والاكتشافات للآثار تشير إلى أن عدد السكان الأصليين في غرب همسفير يمكن أن يصل أو يقارب (١٠٠) مليون نسمة، ويوجد حوالي (٨٠) مليون نسمة شمال (ريوجرانند) و(١٢) مليون نسمة أو ما يقارب

(١) تواريخ الانشقاق ترجمة محمد نجار، ص (٢٥) طبعة ١٩٩٧م.

ذلك حول (نهر المسيسيبي)، وخلال ما يقرب من الشهر فإن أولئك السكان - من الهنود الحمر - قد أبيدوا، ففي منطقة شمال (ريوجراند) كان يتواجد من (١٠-١٢) مليون، لكن مع إطلالة عام ١٩٠٠م لم يبق سوى (٢٠٠) ألف نسمة فقط، أما في منطقة (الانديز ومكسيكو) فقد كان هناك تجمعات هندية كثيفة، إلا أن معظمها اختفى، معظمهم قتل، أو أبيد تماماً، وغيرهم هلكوا نتيجة الأمراض الأوروبية، التي جاء بها المستعمرون، إنها إبادة جماعية قبل نشوء دولة القرن العشرين، وهذه ربما كانت واحدة من أكبر حروب الإبادة، إن لم تكن أعظمها في التاريخ البشري، لكنها لم تكن غريبة من نوعها، إنها حقائق لا يعترف بها... لقد مررت بـ (شاهدة قبر) كتب فيها (هنا ترقد امرأة هندية) ضحت عائلتها وقبيلتها بأنفسهم وأرضهم ثمناً لتولد وتنشأ هذه (الأمّة العظيمة) ..

إنه مثال مخيف جداً، ذلك أن المرء لا يعرف كيف يبحثه أو يناقشه، فهذه المرأة وعائلتها لم يضحوا بأنفسهم وأرضهم، بل قتلوا من قبل أبنائنا، وقد أجلوا عن أرضهم، كما لو أن هذا يحدث بعد (٢٠٠) عام من الآن... ا.هـ.

عبادة القوة

يقول شاعر:

تعشقتها شمطاء شاب وليدها
وللناس فيما يعشقون مذاهب

ولكل عشق متطلباته وتكاليفه، وعبادة القوة تتطلب تكلفة عالية، وحين تصبح من عبادة حاكم مستبد جاهل، فقد تكلفه حياته ومملكه وتدمر بلده تدميرًا كاملاً.

د. نعوم تشومسكي ذلك المعارض المشاكس الذي لا يخاف ولا يهاب، يسأله محاور عن تأثير حرب ١٩٦٧ م على الشعب الأمريكي، فيقول (١): لقد حققت إسرائيل انتصارًا عسكريًا مثيرًا، وأظهرت قوتها العسكرية إذ تغلبت على العالم العربي برمته، فأكسبها سمعة عظيمة، فمعظم الأمريكيين، وخاصة الفئات المتنفذة يحبون (العنف)، ويرغبون أن يكونوا إلى جانب الذي يحمل السلاح، فكل العالم يقف إلى جانب (الضعيف) إلا الأمريكي، وهناك توجد دولة العنف والقوة التي سحقت أعداءها، وأظهرت بأنها (القوة العسكرية المهيمنة) في الشرق الأوسط، وازدانة دوله - التي تنتمي للعالم الثالث - في مكانها وحجمها، وكان مثيرًا بشكل خاص، لأن عام ١٩٦٧ م كان الزمن الذي حققت فيه أمريكا (نجاحًا ضئيلاً) في غزوها للهند الصينية، وقد كانت النخب تساند بشكل كبير الحرب في فيتنام... وقد برزت إسرائيل وظهرت كيف يتم ذلك، وهكذا أظهرت نفسها كنوع من (حصان طروادة) في الشرق الأوسط، وكقوة عسكرية متقدمة، وكمجتمع قوي، وهذا هو المثال الذي تريده أمريكا... أ.هـ.

(١) تواريخ الانشقاق ص (١٠٢).

وإذا كان بعض الحكام الفاشلين المستبدين قد منحوا
إسرائيل كل هذا النجاح والذي أسموه (نكسة) ، ومازلنا نعاني
من هذه (النكسة) حتى اليوم، فلقد أحسن الشاعر حين صنف
البشر فقال:

خلق الله للحروب رجالاً ورجالاً لقصعة وثرید

وأقول: وجد لدينا حكام فاشلون هربوا من العسكرية
للسياسة، فأثبتوا الفشل في الميدانين معاً، ذهبوا وبقينا نعاني
من (بركات هزائمهم).

كانوا يحسنون (الردح) في الإذاعات، ويجيدون السب
والشتنم، وهذا كل ما يملكون، وقد وصفهم الشاعر عمر أبو ريشة
أصدق وصف:

إن خوطبوا كذبوا أو طولبوا غضبوا أو حوربوا هربوا أو صولحوا غدروا
خافوا على العار أن يمحي فكان لهم على الرباط لدعم العار مؤتمر
على الأرائك يا سبحان خالقهم عاشوا وما شعروا ماتوا وما قبروا

يقترح البعض أن يكتب هذا الشعر كشواهد على قبور من
هلك، فهو أصدق وأفضل وصف، فاللهم لا شماتة، ولا كثر الله
من أمثالهم، فلقد أشبعونا هزائم حتى ضربتنا التخمة، وفرح
لهزيمتنا كل شامت..

من التاريخ الأسود

تقدم أن التاريخ هو من يصوغ أحلام الشعوب ويغذيها بذكريات مزيفة، وهو أخطر (كيمياء) يفرزها الفكر البشري، فيسكر الشعوب ويغذيها بذكريات مختلفة سليمة أو سقيمة.

لقد وجدت البابا (أربانوس الثاني) يهيج الناس ضد الإسلام وأهله في خطاب لا تصدق به (جملة)، ففي عام ١٠٩٥م وقبل بداية الحملات الصليبية، بدأ (التسخين) لإشعال سلسلة حروب تحرق الأخضر واليابس، تقتل المسلمين وتخرّب بلادهم، ولا يسلم من ضرورها حتى النصارى في (المشرق) قائلاً^(١): أيها العرق الإفرنجي، العرق الذي أحبه الله واختاره، لقد جاءنا من ربوع أورشليم القدس ومن القسطنطينية نبأ (أليم): أن عرقاً (لعنه الله وأخرجه من ملكوته) قد دنس ديار المسيحيين (بالغزو)، فأفزغ سكانها بالنهب والنار، ولقد اقتادوا السبايا إلى ديارهم، ثم قتلوهم بعد تعذيب وتكيل، لقد حطموا محاريب الكنائس ولوثوها بنجاساتهم... ا.هـ.

ما تقدم نص خطاب البابا (حرفياً) والبابا - في نظر الكاثوليك - معصوم من الخطأ والكذب، فهل كان الخطاب صادقاً؟

نعد إلى المعاهدة التي وقعها الخليفة الراشد عمر.

(١) في البدء كان الصراع، د. خلدون النقيب ص (٢٧٩) طبعة أولى.

معاهدة بيت المقدس

حين حاصرت الجيوش الإسلامية بيت المقدس من كل الجهات، طلب رجال الدين النصارى أن تسلّم بشرط أن يحضر الخليفة عمر بنفسه، فتوجه من المدينة ومعه رجل واحد، وعلى بعير يتناوبونه.

وقد جاء في المعاهدة^(١): بسم الله الرحمن الرحيم: «هذا ما عاهد عليه عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل (إيلياء) من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم، بريئها وسقيمتها، وسائر ملتها، إنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من (اليهود)، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية، كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها (الروم) واللصوص، ومن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء، من الجزية، ومن أحب أن يسير بنفسه وماله مع (الروم) ويخلي بيعهم وصلبانهم فإنهم على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبانهم حتى يبلغوا (مأمنهم)، ومن كان بها من أهل

(١) الديمقراطية د. محمود بسيوني ص (٦) طبعة ٢٠٠٥ (نقلًا عن تاريخ الطبري).

الأرض فمن شاء منهم أقام وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم، وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء والمؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

وبعد توقيع عمر رضي الله عنه شهد عليها الأمراء مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية.

ووصى الخليفة عمر رجاله أن يمنعوا المسلمين من إيذاء وظلم أهل الذمة وأن يتسامحوا معهم، وأن يوفوا لهم بعهدهم، ولا يكلفوهم فوق طاقتهم ... أ.هـ.

فهل طرح الأسباب مثل هذه المعاهدة في أسبانيا، وهل نطمع أن نحصل على مثل هذه المعاهدة في العراق أو أفغانستان أو الشيشان أو كشمير أو فلسطين، ولو بعد ألف عام من تصريحات البابا؟

وصدق الله إذ يقول: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ (آل عمران: ١٨٦).

لقد سمعنا وما زلنا نسمع الكثير من الأذى، ومع ذلك فمن أبناءنا عشاق، برغم كل الأذى، وصدق الإمام الشافعي حين قال: من استغضب فلم يغضب فهو حمار، وأزيد: حمار وله (قرون).